﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

فإنما كفر الكافر عليه في كل النشآت، كما صالح الصلحاء لأنفسهم حيث يجزون من فضل الله، وأولئك يعذبون من عدل الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيبغضهم، إذ لا تخفى على ربنا خافية حتى يخلوا أحياناً من حب وبغض جهلاً بالحال! فمن لا يحبه فهو يبغضه، ومن لا يبغضه فهو يحبه.

وكما ﴿كَفَرَ﴾ تعم كفر العقيدة والعمل كذلك ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ إذ لا يصلح عمل إلّا بإيمان.

والإفراد في «عليه» لرعاية اللفظ «من» والجمع في ﴿يَمْهَدُونَ﴾ لرعاية المعنّي منها، ولماذا - بعد - لم يأتيا بصيغة واحدة إفراداً أو جمعاً واللفظ نفس اللفظ والمعنى نفس المعنى؟ قد يعني الإفراد في «عليه» التبعة الفردية في الكفر، والجمع في ﴿يَمْهَدُونَ﴾ المهاد الجمعي في الإيمان، فإن أولاد المؤمنين - الصغار - يلحقون بهم في مهدهم، ولا يلحق أولاد الكفار بهم، كما وذرية المؤمنين التابعين لهم بإيمان يلحقون بهم في درجتهم تكريماً لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[1].

فالرحمة لأنها قضية الفضل هي أعم من الغضب وهو قضية العدل، لا فحسب في الأخرى بل وأيضاً في الأولى حيث يشمل برحمته كل مرزوق مؤمناً وكافراً ولا يأخذ بعذابه هنا إلّا الكافر فقد «سبقت رحمته غضبه» بكل سبق وفي كل سباق[2].

---

(١) نور الثقلين ٤: ١٩١ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العمل الصالح ليسبق صاحبه إلى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى
ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ
أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ
كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ
﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم
مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً
ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ
كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى
كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم

بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ لرحمته الشاملة ﴿أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ برحمات: إزالة للعفونات، وتلقيحاً لشجرات، وتلحيقاً للسحاب ركاماً أم إثارة لها بسطاً في السماء كيف يشاء، وتلطيفاً للأجواء، وتبريداً للهواء، أماذا مما تخلّفه الرياح المبشرات ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ فالإذاقة قلة، و«من» التبعيض قلة أخرى تجعلان غزير الأمطار قلة قليلة من رحمته، ولنعرف ما هي رحمته يوم الرحمة الأخرى.

﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بالرياح ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بجريان الفلك والرياح ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ مرسل الرياح مبشرات، بهذه الرحمات ومحققات لهذه العطيات.

وحين يرسل الله الرياح مبشرات لرحماته المادية للأولى أفلا يرسل رياح الوحي مبشرات لرحماته الروحية التي تعيّشنا في النشأتين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

إن الرياح الروحية الرسالية المبشرة بكل الرحمات قد أتت ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ ثمرات الحياة قطعاً لها قبل إيناعها، فتحويلاً لها إلى نكبات، وأما الذين آمنوا ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في حقول

الرسالات هنا ويوم يقوم الاشهاد: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[١].

و«كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي بمستقبله، تأكيداً لاستمرارية النصر الرباني لهؤلاء الأكارم قدر ما ينصرون الدين والدينين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

إثارة السحاب وبسطها في السماء كيف يشاء وجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله، ذلك من مبشّرات الرياح المبشّرات، أفردت بالذكر فصلاً بعد وصل لأنها أهم بشارات الرياح ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

فمن فاعليات الرياح إنها تثير سحاباً من المياه بما تحمله من الأبخرة المائية، فكما بقر الحرث تثيره، كذلك السحاب تثير حرث الأبخرة قلعاً من الكتل المائية على وجه الأرض ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ الله ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[٢]. ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: ويجعل الله السحاب المبسوط في السماء: كسفاً: قطعاً ركاماً فوق بعض: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾[٣].

والودق هو بداية المطر، يخرج من خلال السحاب كأنها غرابيل، ثم يصبح الودق مطراً نزيراً أم غزيراً ﴿فَإِذَآ أَصَابَ﴾ الله ﴿بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ برحمة الماء من السماء.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٤٣.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

وما هو المرجع لضمير الغائب في ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾؟ أهو الودق وقد أغني عنه من قبل بـ ﴿مِن قَبْلِ﴾! ولا فصل بعيداً يقتضي التكرار! وليس الإبلاس الإياس إلّا من قبل الرياح! أم إنه «السحاب»؟ فكذلك الأمر معنوياً مهما صح لفظياً!..

انه إرسال الرياح المؤوّل من ﴿يُرْسِلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ -: وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل إرساله الرياح لملبسين.

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾:

﴿فَٱنظُرْ﴾ نظرة العبرة النبهة بصراً وبصيرة ﴿إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الودق المطر ﴿كَيْفَ يُحْىِ﴾ به ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ كيفية متواترة مرئية ليل نهار، أن يضم رحمة السماء إلى رحمة الأرض ببذر، وكل الثلاث ميتة بمفرداتها، ثم تحصل الحياة بجمعيتها كما يشاء الله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الرحمن الرحيم القدير ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أياً كانت وأيان، وأهمها لإحياء يوم الحساب فإنه قضية عدله مهما كان سائر الإحياء في سائر الأحياء قضية فضله.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾:

هذا الريح هو ريح العذاب حاراً أم بارداً يصفّر به الزرع عن اخضراره، وترى ﴿فَرَأَوْهُ﴾ تعني الريح؟ وليس لريح العذاب كما سواه لون! ولو كان وهو مصفر فصالح التعبير عنه «ريحاً مصفراً - أو - أصفر»! ولم يوصف الريح فيما وصف بأي لون اللهم إلّا بفاعلية العذاب: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾(١) (٢).

---

(١) ﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يُونس: ٢٢] ﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ [الإسرَاء: ٦٩] ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذّاريَات: ٤١] ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحَاقَّة: ٦].

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٧.

مرجع الضمير هو الزرق أو مطلق النبات المعلوم من السياق ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ بعد إرسال الرياح ﴿فَرَأَوْهُ﴾: النبات المخضّر بالمطر الحاصل عن إثارتها السحاب، رأوه مصفراً ﴿لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ كفراناً برحمته السابقة السابغة، أم وكفراً به.

ثم الإفراد في ريح العذاب قد يلمح بالعذاب، كما الأكثرية الواردة في القرآن تعنيه، بخلاف الجمع في رياح الرحمة فإنها لم تأت في عشرتها الكاملة إلّا للرحمة(١).

وعلّ وجه الجمع في رياح الرحمة، أنها خليطة من مختلف الرياح، أم ريحاً متكرراً متواتر لكي يصلح لما يبشر به، وريح العذاب أحياني، وأما ريحاً الرحمة فدائبة، فهذه جمع يحلّق على كل زمان ومكان، وذلك مفرد حيث لا يأتي إلّا الأحيان.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هنا هم موتى القلوب فالصمّ الأسماع والعمي الأبصار، حيث لا يعون ولا يسمعون ولا يبصرون ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ . . .﴾(٢) وذلك ختم الجزاء يوم الدنيا دون الجزاء الختم فإنه في الأخرى.

إن إسماع آيات الله ليس يؤثر إلّا في ﴿مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإن سجيّته الإيمان بها حين تواجهه، وهو يتحرى عنها، ولأقل تقدير لا يتجرأ عليها ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لها، مؤمنون بها.

---

(١) في آيات عشر الرياح كلها للرحمة وفي (١٨) آية ريح أو ريحاً لا تجد إلا مرة يتيمة ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢] أم وريح سليمان ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبيَاء: ٨١] وهي ريح القوة وليست ريح الرحمة العامة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾:

تعريف آخر بالله وجاء مختلف حالات الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف وشيبة، ومن القوة الحياة ومن الضعف الممات، والإنسان كما هو بين مختلف حالات سائر الضعف والقوة كذلك هو بين الموت والحياة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لا كما نشاء «وهو العلي القدير» بما يخلق.

﴿خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ هو منّي فإنه ضعف في كيانه وضعف في دفقه، فـ ﴿ضَعْفٍ﴾ مصدراً تلمح إلى مدى ضعف النطفة كأنها الضعف نفسه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أمنذ العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كسوتها لحماً إلى إنشاءه خلقاً آخر وإلى...؟ وكل ذلك ضعف بعد ضعف! وقد تعني ﴿قُوَّةً﴾ بداية القوة والقيام على ساق للولائد، و﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ قد تعني الضعف فيما بين الضعف الأوّل والقوة الأولى.

فإن «من ضعف في خلقكم» هو النطفة المخلوق منها الجنين، فـ ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ تعني ضعف الجنين المخلوق من ضعف، ومن ثم فـ «ثم» هنا تفصل بين خلقه من ضعف وجعل قوة له بعد ضعف، فذلك الفاصل ضعف بعد ضعف.

فضعف المصدر ممثّل في تلك الخليّة الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين، وضعف الصادر بينه وبين قوة هو الجنين بأطواره، ثم الطفل حتى يقوم على ساقه من ضلاعة التكوين.

وقوته بادئة من ذلك القيام كاستقلالية مّا في بعض الحاجيات مشرباً ومأكلاً وملبساً، وقياماً في حاجيات أخرى.

وهذه القوة باقية لحد الأربعين متزايدة، ثم تبدّل إلى ضعف ثم شيبة، فالشيخوخة انحدارة إلى الطفولة بكل مظاهرها الضعيفة ولحد لا تعلمون

شيئاً ولا تقدرون على شيء وهو أرذل العمر: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾[1].

«يخلق الله ما يشاء» من ضعف وقوة وشيبة ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ ماذا يخلق وفق الحكمة العالية ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ بكل خلق.

فليس خلقكم ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ لضعفه قدرة وعلماً، ولا ﴿جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ لقوته علماً وقدرة، بل إنها تحويلات إلى حالات حسب الحكمة العملية القديرة كما يشاء، ولا يفلت منها أحد من أبناء الفناء حيث تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد انها مدبّرة كما يشاء الله العليم القدير.

أو ليس لهذه النشأة الحكيمة القاصدة استمرارية في نشأة أخرى هي مزرعة الأولى؟:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

اللبث هنا هو لبث البرزخ، فإنه الذي يسبق ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ لا لبث الدنيا، أم هو مجموع اللبثين؟ استقلالاً لحياة التكليف والتي بعدها قبل قيامة الساعة.

وإقسام المجرمين هناك ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ إفك مبين كما هم في حياة التكليف ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ صرفاً عن وجه الحق إلى غير وجهه، على طول خط الحياة إلى قيام الساعة ولمّا يفيقوا عن غفوتهم وهم محشورون ليوم الدين!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾:

﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ علّه كتاب التكوين التقدير إلى جنب كتاب التشريع

(١) سورة الحج، الآية: ٥.

التدوين، فقد قدر الله وقرر لبثاً برزخياً لكل من الأموات وإن ماتوا في قيامة الإماتة، كما أن آيات من القرآن تتحدث عن هذه الحياة الفاصلة بين الحياتين ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

فـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بالكتاب ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ بما في الكتاب، هناك يكذبون المجرمين القائلين ﴿مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ كما هنا، أم ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾[٢] ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[٣] أو ﴿عَشْرًا﴾[٤] يكذبونهم بقولهم ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وقد يعني ﴿كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ ما كتبه الله من الحياتين قبل الأخرى وهي ﴿يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي كنتم به تكذبون ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ قبله ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أتراهم كانوا لا يعلمون إنهم سوف يبعثون وهم في البرزخ وقد ظهر لهم ما كان خفياً عليهم؟

هنا ﴿كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ماض بعيد يضرب إلى بعيد هو بالطبع حياة التكليف لا والبرزخية أيضاً.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

الاستعتاب هو طلب العتبى وهي العتاب وإزالته، فهم كما لا ينفعهم معذرتهم إن اعتذروا، لا يطلب منهم أن يعتبوا أنفسهم أم يزيلوا عتابهم، مهانة لهم وهواناً كأنهم جماد لا يشعرون.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة النازعات، الآية: ٤٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٢٥.

إن الآية المثبتة للحق أصبحت عندهم مبطلة والجائي بها مبطل، وهكذا يرتكس الظالمون في حمأة الغباوة الخانقة أن تنقلب آية الحق عندهم آية الباطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

لقد طبع الله على قلوب هؤلاء الظالمين وأزاغها كما زاغت بتجاهل عارم قاحل لحد تقلّب الحق عندهم باطلاً والباطل حقاً، حياة منكوسة مركوسة أرذل من الدواب وأضل.

فـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هنا هم الجاهلون المقصرون، لا القاصرون المستضعفون، ولا يطبع الله إلّا على قلوب خالية عن الهدى خاوية عن التقوى، مليئة من الطغوى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾[1].

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الهدى على قولتهم ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ وعلى فعلتهم المضادة لدعوتك فما أنت إلا نذير ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ﴾ في نصرتك: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وفي عذابهم كما يشاء ويصلح ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ استخفافاً عن ثابت الإيمان الإسلام والدعوة الصارمة.

هنا ﴿فَٱصْبِرْ﴾ توطين لخاطر الرسول وقلبه القريح الجريح، ثم وفي تأويله قد يكون توهيناً لسواه تهويلاً بمستقبل العذاب كما فعله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جواباً عن ابن الكوا[3].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٣) نور الثقلين ٤: ١٩٢ عن تفسير القمي كان علي بن أبي طالب عليه السلام يصلي وابن الكوا خلفه=